المشرق

القديس ايرونيموس والشرق

نبذة تاريخيّة للاب لويس شيخو اليسوعيّ

في ٣٠ ايلول من مثل هذه السنة انتقل الى دار الخلود قبل خمسة عشر قرناً احد آباء الكنيسة اللاتينيّة وجهابذة العلوم الدينيّة الكبار نريد بهِ القديس ايرونيموس الشهير الذي لا يزال اركان الدروس الكتابيّة يستنيرون بنبراس تآليفه المشعّة ويقرّ لهُ بالسبق في حلبتها المنصفون من اعداء الدين فضلاً عن ابناء البيعة المخلصين . ولا بدع أن نرى اسم ايرونيموس قد صبر على تيّار الدهور بل زاد شرفاً مع توالي الايام بازدياد انتشار آثارهِ وغوص ارباب البحث على دُرَرها الثمينة

ومن ثمَّ لم يشأ رؤساء الكنيسة الكاثوليكيّة ان يمرّ هذا الموسم الشائق دون ان يقدّموا اصاحبهِ الاكرام الواجب ويحيوا معالم ذكرهِ . وقد سبق قداسة الحبر الاعظم بندكتوس الخامس عشر وابرز براءةً جليلة البيان بليغة المعاني اتّسع فيها بتعداد مناقب ذلك الرجل العظيم وما ادّاهُ من الخدم الممتازة للدين والعلوم معاً . ثم خصَّ لتذكارهِ المنويّ ثلاثة ايّام من هذا الشهر كانون الاوّل وهي السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر منهُ لتقام في اثنائها اعياد باهرة في امّ المدائن في كنيسة مريم الكبرى حيث يُكرَم المؤمنون جسدهُ الطاهر في قبرهِ المجيد قريباً من مذود السيّد المسيح وقد نُقل كلاهما من بيت لحم الى رومية فيرقد ايرونيموس في لحدهِ مجاوراً لآثار سيدهِ كما عاش في حياتهِ في ظلّ مغارة ميلادهِ . وقد احبَّت عدَّة كنائس وجمعيّات كاثوليكيّة ان تشارك رومية العظمى في هذه الاعياد كما انَّ المجلّات الدينيّة الكبرى حفلت بالمقالات المنبئة بفضل القديس ايرونيموس ومآثرهِ الخطيرة

فما كنّا بهذه النسبة لنتخلّف عن اخوتنا الغربيين بل رأينا ان نمثل في حفلاتهم اصقاعنا الشرقيّة لـ للقديس ايرونيموس من الفضل على الشرق لاسيّما وقد اتّخذناهُ في كنيستنا كشفيع خاصّ لمكتبنا الشرقي لنقتدي بآثاره في تعليم العلوم الكتابيّة وتدريس اللغات الساميّة التي سبق اهل بلاده في درسها

وتنويهاً بشكرنا رأيت ان نسطر في مقالة وجيزة ما كان من الروابط بين القديس ايرونيموس واقطارنا الشرقيّة فنبيّن في فصل اوّل فضل الشرق على ايرونيموس ثمّ نلحقهُ بفصل ثانٍ فنثبت فضل ايرونيموس على الشرق

١ فضل الشرق على القديس ايرونيموس

انّ القديس ايرونيموس على خلاف سائر آباء الكنيسة الغربيّة قد نال من فضل الشرق كثيراً من مزاياه الطيّبة وشمائله الحميدة بحيث يسوغ للشرق ان يفتخر بهِ افتخارهُ بأعزّ ابنائهِ المولودين في مواطنهِ

رأى ايرونيموس النور في حدود بلاد المجر ودلماتيا في مدينة تُدعى ستريدو نحو السنة ٣٤٠ للميلاد من أسرة شريفة واسعة الثروة. ثمّ ارسلهُ اهلهُ لمّا ترعرع الى رومية عاصمة الدنيا وقتئذٍ ليأخذ الآداب والعلوم الرومانيّة عن مشاهير معلّميها فلم يلبث ان استرسل الى اهواء الشباب وأطلق العنان الى شهوات قلبهِ دون ان يردعهُ عنها وازع الضمير ولا يَزَعهُ وازع الدين اذ لم يكن بعد قد اصطبغ بمياه المعموديّة . فلمّا تنصّر نحو السنة ٣٥ من عمرهِ وجد في العماد قوّةً لقهر النفس الامّارة لكنّها عادت بعد حين فدفعتهُ الى اباطيلها

على انّ العلوم التي كان تلقّنها ذلك الشابّ من جلّة اساتذة رومية اخذت تشغلهُ عن اللذّات الباطلة وتحدو بهِ الى توسيع نطاق معارفهِ فقام يباشر الاسفار الى انحاء فرنسة والمانية وايطالية لينظر ما فيها من الآثار ويطّلع على خزائن كتبها فسُرَّ بما لقيهُ منها ونسخ ما سنحت لهُ الفرصة من نقله الى ان بلغ مدينة اكويليـة حاضرة وطنهِ فوجد فيها بعد غيبتهِ النصرانيّةَ مزهرةً والعلوم الدينيّة رائجةً والآداب الرهبانيّة ناميةً فاجتمع ببعض الاصحاب كانوا عدلوا عن رفاه الدنيـا وصرفوا فكرهم الى الخيرات الباقية وذاقوا كم هي عذبةٌ طيّبة خدمةُ الله (مز ٣٣: ٩). وكان من جملتهم

كاهن يُدعى ايفتريوس من مدينة انطاكية كان مغرماً بالعيشة النسكيَّة يدعو اليها ذوي التُّقى والذين اختبروا مرارة العالم الغدَّار فآنس ايرونيموس وصافاهُ وحبَّب اليهِ الحياة الفاضلة والاعتزال عن زخارف الدنيا والانقطاع الى الله . فعمل كلامهُ في قلب الشابّ الذي رضي ان يزهد في اباطيل دار الفناء ويتبعهُ الى سوريَّة حيث كان كثيرون من اهلها استنكفوا من زهو الدنيا وحطامها وفزعوا الى البراري والقفار ليتمتعوا بمناجاة الله . فكان ارتداد ايرونيموس الى ربّهِ نعمةً اصابها على يد احد الشرقيين من ابناء سوريَّة

على انَّ هذه النعمة كانت كفاتحة نعم أخرى أسبغها الشرق على ايرونيموس . فانهُ بعد ان تنسَّك برهةً في بعض اديرة وطنهِ اجتذبتهُ محاسن الشرق فبرح الاوطان ورحل الى الاراضي المقدَّسة فحجَّ اورشليم وتبرَّك بزاراتها الجليلة ثمَّ طاف جهات قيليقية وآسية الصغرى الى ان حطَّ عصاهُ في جوار انطاكية شرقيَّ نهر العاصي في بادية تُعرف ببادية كَلْسيس حيث وجد بعض السيَّاح فاستنهج سبيلهم والتزم على مثالهم كلَّ فرائض الحبساء من صوم وصلاة وتقشفات واشغال شتَّى ولاسيَّما درس الاسفار المقدَّسة . وحاول ابليس غير مرَّة ان يغلبهُ بتجاربهِ لكنَّ جندي المسيح ردَّهُ خائباً بحُسن بلائهِ . ومما كتبهُ وقتئذٍ واصفاً سعادته في تلك المناسك ما تعريبهُ :

« يا حبَّذا القفر المنسَّق بزهور المسيح . نِعمَت الخلوة التي تُنحَت فيها الحجارة الكريمة التي بها تُبنى دار الملك العظيم . فهُ درَّ العُزلة حيث يتمتَّع الانسان بمناجاة ربّهِ . . . يا مَنْ خلبَتْهُ ملاذ الدنيا الفانية دَعْ عنك وقرها ! حرِّر نفسك من نيرها . آه كم يسرُّني اني ألقيتُ عني أعباء الجسد لأرتقي الى الانوار العلويَّة . يا صاح أنخاف من الفقر ؟ اذكر تطويب المسيح للفقراء بالروح . اينَ عزمك تعب الجهاد ؟ ولكن كيف ينال الاكليل السرمديّ من لم يُعانِ مشقات الجهاد . أتكريك وَحشة البادية ؟ فما لك الَّا ان تعيش بالروح فتذوق نعيم السماء : فاني احسب مع الاباء والرسول المصطفى رومية (٨ : ١٨) « انَّ آلام هذا الدهر لا تُقاس بالمجد المزمع ان يتجلَّى فينا »

ولم يكتفِ ايرونيموس بما وجدهُ في نسَّاك سوريَّة من الفضائل وما اختبرهُ من حسن طريقتهم الرهبانيَّة بل احبَّ ان يُعارضها بسُنن أماثل الزهَّاد في مصر اذ كانوا سبقوا الجميع في الآداب الرهبانيَّة على مثال انمَّتهم القديسين بولا وانطون ومكاريوس وباخوميوس فقصد مصر واجتمع بشيوخ رهبانها واستفدى في البحث عن

طرائقهم ليأتي بها ويطلعها غيرهُ فعرف للشرق فضلهُ في ذلك

لكنَّ الله كان يُعدّ عبدهُ الى ما هو اجلّ واجدى نفعاً للعالم لئلّا يبقى نور سراجهِ محجوباً تحت المكيال فأضرم في قلبهِ الرغبة في خدمة الكنيسة اللاتينيَّة ونشر العلوم الكتابيَّة بين ارابها . فرأى القديس يوجودهِ في الاقطار السوريَّة ما يمكنهُ من تحقيق امانيهِ . كيف لا وكانت النصرانيَّة وقتئذٍ هناك في عزّها واوج مجدها تسطع فيها ضياء عقول نيّرة كالاقمار الثلثة يوحنّا فم الذهب وباسيليوس القيصري وغريغوريوس النزيزي وكافرام السرياني وابيفانيوس القبرصي وغيرهم . وكانت انطاكية احد مراكز الدروس الكتابيَّة يؤمّها الطلّاب من كل فجّ وكان من جملة معلميها ابوليناريوس اللاذقي الذائع الشهرة يثّل تعليمها المخالف نوعاً لعلوّ المدرسة الاسكندريَّة المبالغة في الرمزيّات فكان يُعنى بشرح الاسفار المقدَّسة على لفظها وحقيقة معانيها . فتتلمذ له ايرونيموس دون ان يهمل الاعمال النسكيَّة في خلوتهِ واستحسن طريقتهُ التعليميَّة وجرى بموجبها في تفاسيرهِ للكتب المنزلة . فكانت هذه منَّةٌ ثالثة استفادها ايرونيموس من شرقنا العزيز . وزادت هذه النعمة فضلاً بما وجدهُ بين علماء الشام من الوسائط لدرس لغات الكتب المقدسة الاصليَّة فدرس اوّلاً اللغة العبرانيَّة على من يتقنها ألا وهو ناسك فاضلٌ كان ارتدَّ عن اليهوديَّة فترهَّب . ثم أحفى بعد ذلك في دقائقها بتعليم احد الربّانيين واضاف اليها الكلدانيَّة . فأهّلهُ كلّ ذلك الى ترجمة الاسفار الالهيَّة

وأحظى الله عبدهُ ايرونيموس في الشرق ايضاً بموهبة اخرى فائقة كان بلغهُ ما للقديس غريغوريوس النزيزي من رسوخ القدم في العلوم اللاهوتيَّة فصمَّم النيَّة على قصده في القسطنطينيَّة وكان غريغوريوس قد تعيَّن عليها بطريركاً فلم تأخذهُ في ذلك لومة لائم حتَّى بلغ تلك العاصمة وشفى غليلهُ من مورد حَبْرها الجليل الذي استقبل ايرونيموس كمعلّم ليس كطالب ولبّى دعوتهُ في كلّ ما عرضهُ عليهِ وقد نوَّه بفضل غريغوريوس عليهِ في كتاباتهِ . ثم طاف القديس في تلك الاثناء في بلاد اليونان واجتنى من معلّميها عدَّة فوائد وابحر الى قبرس وصادف رئيس اساقفتها القديس ابيفانيوس واطّلع على تآليفهِ كما اخذ في الاسكندريَّة عن ديديموس احد كبار فلاسفتها

فترى ان الشرق لم يضنّ على ايرونيموس بهباته بل افاض عليه سوابغ نعمه بحيث يسوغ لهُ أن يعتبر ذلك القديس كصنيعته . دعنا الآن ننظر ما ربحهُ الشرق من فضل ايرونيموس

٢ فضل ايرونيموس على الشرق

انَّ عرفان الجميل من خواصّ النفوس الشريفة التي لا ترضى بقبول النعمة الا واسرعت الى الشكر للمنعم وسعت بالمكافأة عنها على قدر طاقتها . وما كان ايرونيموس ليأسى فضل الشرق عليه ولم يجتزئ بإعلان شكره في كتاباته بل اراد ان يؤدي للشرق خدماً جزيلة توازي نعمهُ اليه

واوّل خدمةٍ يحقُّ لنا ذكرها انَّ ايرونيموس عطّر بلادنا بعرف فضائله مدَّة نحو اربعين سنة . فانَّهُ بعد انقطاعه الى العيشة النسكيَّة في سوريَّة الشماليَّة وتجوُّله في انحاء آسية الصغرى عاد الى رومية بدعوة الحبر الاعظم دماسوس الذي انتدبهُ الى كتابة اسراره وتنظيم السجلّات الرومانية . فلم يسعه الّا الطاعة لرئيس الكنيسة فبقي في وظيفته سنتين الى وفاة القديس دماسوس (١١ ك ١ سنة ٣٨٤) وهو ينشر في عاصمة الكثلكة وبين وجوه اهلها من رجال ونساء التعاليم الكتابيَّة ويدعو معارفهُ الى الزهد بالدنيا ولزوم العيشة الرهبانيَّة

فما ملك حريَّتهُ بوفاة البابا دماسوس حتَّى حنَّ قلبهُ الى الشرق ويمَّم بلاد فلسطين ليعيش فيها الى وفاته حابساً نفسهُ لخدمة الله بممارسة الزهد الرهبانيّ ولخدمة الدين بالتآليف الكتابيَّة والمصنَّفات العلميَّة وذلك في بيت لحم في جوار مغارة ميلاد السيد المسيح . فقضى هناك نحو ٣٥ سنة قدّسها بسيرته الصالحة وباعماله المبرورة وسعيه المتواصل في الرقي الى معارج الكمال فشرَّف المشرق وزانهُ بجلية فضائله

ومما اجداهُ ايرونيموس الاصقاع الشرقيَّة انَّهُ دعا اليها افاضل الغرب ليتنسَّكوا بصحبته ففتح لهم ديراً في بيت لحم قصدهُ كثيرون من نخبة الرومان فائتسوا بهِ واتخذوهُ مرشداً ومعلماً فانتشر عبير برّهم في كلّ الانحاء حتَّى انَّ عدداً عديداً من زوَّار الاراضي المقدَّسة كانوا يعرّجون على دير بيت لحم ليتمتَّعوا بمشاهدة رهبانهِ ونيل بركتهم وقد ردَّ منهم ايرونيموس كثيرين الى جادَّة الفضيلة . وكما سعى ايرونيموس

بانشاء هذا الدير للرجال كذلك عُني مع القديسة پولا الرومانيَّة بفتح دير لعذارى الغرب بازاء دير الرهبان كان القديس ايرونيموس يتولَّى ارشادهُ فاصبح بعد زمن قليل زاهياً نامياً حتَّى ضاق بوفرة السيِّدات اللواتي طلبن الترهُّب فيه وكان بينهنَّ الخواتين من سلالة أُسر رومية العريقة في الشرف كسيپرن وفابيوس وكيل ساقهنَّ بثالة وتعاليمه الى ذروة القداسة منهنَّ القديسة اوسطوكية وميلانية ومرقلينة وأسلا وأليمنة وغيرهنَّ

ونُعدّ فضلًا عظيماً جاد به ايرونيموس نحو الشرق ما الفهُ في خلوة بيت لحم فانَّ مصنَّفاته توازي مكتبةً واسعة جلبت اليه نظر علماء زمانه فكانت تتوارد اليه رسالات مشاهير بلاد غالية وايطالية وافريقية من جملتهم نابغة عصره القديس اوغسطينوس العظيم. فكان يجيب الجميع عمَّا يعرضون عليه من المشاكل المختلفة. وناهيك برسائله هذه دليلًا على سعة علمه فانَّ البعض منها كتآليف قائمة بذاتها

ولم يشرّف ايرونيموس شرقنا بتآليفه فقط لكنهُ خصَّ كثيراً من نتائج فكره بتمجيد الشرق وذكر مفاخره واطراء كبار رجاله. فمن ذلك كتابهُ المعنون بالكتبة الكنسيين روى فيه اخبار أعيان الشرق والغرب الذين نبغوا بتآليفهم الدينيَّة منذ عهد الرسل الى زمانه. ومنها تراجم بعض اولياء الله في الشرق ولا سيَّما ترجمة القديس پولا زعيم السيَّاح وترجمة القديس ايلاريون السائح الفلسطيني والقديس ملكوس الناسك في جهات القرات. ومنها معجمهُ في تعريف الامكنة المذكورة في الاسفار المقدَّسة وكتابهُ في تفسير الاسماء العبرانيَّة. فكلُّ هذه المؤلفات افاد بها بلادنا وكشف في مطاويها عن غوامض تاريخها وجغرافيَّتها جارياً في قسم منها على آثار اوسابيوس القيصري

وما قولنا عن معلومات متفرِّقة وفوائد شتَّى ضمَّنها القديس ايرونيموس سائر كتاباته فوصف بها كثيراً من عادات الشرقيين ومعاملاتهم واساليب كلامهم وعيشتهم الاهليَّة وتصرُّفهم مع الاجانب وحرصهم على جمع المال والاتجار وغير ذلك ممَّا يُطلعنا على احوال بلادنا وسلوك اجدادنا قبل الف وخمسمائة سنة برواية شاهد عياني فنستطيع ان نُقابلها بعاداتنا الحاضرة ونتبيَّن ما ثبت منها وما فُقد بكوارث الزمان. ومثلها العادات والطقوس الجارية في كنائس الشرق وخصوصاً في الاراضي المقدَّسة فانَّ

القديس يفيدنا عنها ويصفها وصفاً مدققاً كالاعياد والفرائض الكنسية والرتب التقوية والاصوام وغير ذلك مما كان يعاينهُ كلَّ يوم

ويلحق بهذا الباب اوصاف عديدة خصَّها القديس ايرونيموس بالتاريخ الطبيعي والوالد الثلاثة لا يفوتهُ منها شيءٌ في تفسير الكتب المقدَّسة . فلهُ في باب الجماد اوصاف للجواهر والحجارة الكريمة والاجسام المختلفة وبعض الاجرام الفلكيَّة . واوسعُ منهُ باب النبات فعرَّف في شروحه على التوراة اصناف النبات والزهور والبقول والاعشاب الطبية والاشجار الثمرة والاشجار العادية . وربما دقق في تعريفها وبيان خواصها كاحد ارباب الطبيعة . ومثلها باب الحيوان فانهُ تتبَّع اجناسهُ المختلفة من حشرات وزحافات واسماك وطيور وحيوانات اهلية وبريَّة . فهذه كلها لو جمعت لأحطنا بها علماً بمعارف زمانهِ في كلِّ اقسام الطبيعة لاسيَّما في انحاء الشرق لورود اسمائها في الاسفار الالهيَّة عند كلامها عن فلسطين وسوريَّة ولبنان وطوروسينا

ولايرونيموس فضلٌ اعظم من ذلك اسداهُ للشرق وامتاز بهِ ألا وهو جهادهُ ضدَّ البدع والهرطقات التي وجدها في الشرق وناصبها ليمنع سريانها في الاقطار الشرقيَّة . فمن ذلك بدعة اريوس فانَّها رغماً من حرمها في المجمع النيقويّ ومناهضة آباء الكنيسة لاضاليلها لم تزل تنفث سمها في قلوب كثيرين فكان ايرونيموس من الذَّاعدائها ودافع عن لاهوت السيد المسيح طاقة جهده . وهكذا فعل لمَّا رأى ناودورس الضيعيّ زارعاً لبذار النسطوريَّة بقولهِ انَّ للمسيح اقنومين كما انَّ لهُ طبيعتين فنقَّدهُ ايرونيموس وافحمهُ واضطرَّهُ على الاقرار بغلطهِ

وممَّن تولَّى ايرونيموس تزييف تعاليمهم بعض المنتسبين الى اوريجانوس كروفينوس ويوحنَّا البطريرك الاورشليميّ وغيرهما فانهُ ردَّ عليهم ردوداً متوالية بخصوص الثالوث الاقدس والنفس البشريَّة وكشف عن خبثهم ومهَّد للكنيسة السبيل لرشقهم بسهام الحرم بعد حين في المجمع المسكونيّ الخامس سنة ٥٥٣ .

ولم يكد ينجو من شرّ الاوريجانيين حتَّى تحتَّم عليهِ منازلة عدوٍّ آخر قدم الى الشرق بعد ان بثَّ زؤان تعاليمهِ في جهات الغرب نعني بهِ پيلاجيوس عدوّ نعمة الله . فما شعر ايرونيموس بكيدهِ وبلغت مسامعهُ آراؤهُ الفاسدة حتَّى تصدَّى لهُ وصنَّف كتاباً للردّ على مزاعمهِ فاحتدم صدر پيلاجيوس عليهِ غيظاً واجتمع بأعداء القديس

ليطلبوا من حكّام البلاد نفيهُ واذ لم يفوزوا بمرادهم هيّجوا عليهِ وعلى رهبانهِ بعض الاشقياء فهجموا على ديرهم واساؤوا الى سكّانهِ ونهبوهُ واحرقوا قسماً منهُ وطلبوا الرئيس ليقتلوهُ لكنّهُ نجا من ايديهم بعناية من الله . ثمّ قصدوا دير الراهبات وكنّ فررنَ هاربات ففعلوا فيهِ فعلهم بدير الرهبان

اثّرت هذه الامور في ايرونيموس وذويهِ ايّ تأثير فقاسَوا مدّةَ آلام النقرس المُدقع وسوء السكن . ولمّا عرف البابا القديس اينوشنسيوس الاوّل بما جرى ونُدب البطريرك الاورشليميّ على تغاضيهِ عن حقوق الرهبان وحرم المبدعين وعزّى المضطهدين لاجل البرّ . وفي تلك الاثناء توفّي يوحنّا الاورشليميّ (٤١٧م) وأُقيم لهُ خلفاً پرياوس فأنصف الرهبان وساعدهم في استئناف اعمالهم . وخرج ايرونيموس من تلك العاصفة مكلّلاً بتاج الشهادة لمقاساتهِ الاهانات والعذابات في سبيل الايمان

لكنّ الاوجاع لم تكسر عودهُ ولم تثبّطهُ عن الذود عن حياض الدين المستقيم مع ما اصابهُ وقتئذٍ من اعباء الشيخوخة ووطأة الاسقام فانّهُ بقي الى آخر نسمة من حياتهِ يرشد ويؤلف ويعلّم فمات (في ٣٠ ايلول ٤٢٠) كالجنديّ الباسل والقلم في يدهِ مزوّداً بكل اسرار البيعة التي تعدُّهُ من اشرف ابنائها واعظم حماتها . امّا الشرق الذي بادلهُ بالفضل فانّهُ اعتبر وفاتهُ كرزٍ . وطنيّ لكنّهُ نسب الى حسن طالعهِ ان يحفظ في ظهرانيهِ ذخائرهُ المقدّسة ويرى قبرهُ ممجّداً مدّة سنين طويلة قبل ان يُنقل جسدهُ الطاهر بامر الكرسيّ الرسولي الى امّ المدائن

والحقّ يقال أنّ من خلّف آثاراً جليلة كالقديس ايرونيموس لم يمت ويصحّ فيهِ قول الكتاب في هابيل (عبر ١١ : ٤) : « فهو ان مات لا يزال يتكلّم » بل يزأر كالاسد وقد اشار الى ذلك احد المصوّرين البارعين المسمّى بالدومينيكان « Le Dominiquain » اذ جعل تحت اقدام القديس في صورتهِ تمثال الاسد ولا غرو فانهُ حقًّا اشبه سلطان السباع بنخوتهِ وثبات جنانهِ وجرأة مُقدَمهِ فسُمع زئيرهُ الى اقاصي الارض فرجفت لهُ فرائص المبتدعين وسُرّت قلوب المؤمنين . فيحقّ للشرقيين ان يشاطروا ابناء الغرب في اكرامهم لضيفهم الشريف وقد عرفوهُ مدّة السنين الطوال اصدق نصير للحقّ واشدّ مزهق للباطل نفعنا الله بشفاعتهِ